عبثية الوجود في الشعر العربي الحديث

الاستاذ الدكتور صدام فهد الاسدي

مما لاشك فيه ان الشعر العربي كان ولا يزال رسالة لرفع القيم وعلو الاخلاق ، ولو عدنا للوراء قليلاً لوجدنا من سبل تحقيق الرقي والازدهار هو الشعر العربي فقد كان الشعر يقرض لا لأجل اظهار الموهبة وتحقيق مكانة مرموقة في المجتمع فحسب بل تعدى هذا الحد وهذا الاطار الضيق ليكون حلقة وصل بين الناس وشمساً تسطع بوضوح لتبين الحق من الباطل لكن بدأ هذا الصرح العظيم تمسه بعض الظواهر القبيحة التي لم تضف الى مجده شيئاً بل اساءت اليه ، الى ان وصل ببعضهم شناعة الاشراك بالله تعالى والالحاد في ملكوته او الخروج على العادات و التقاليد .
والالحاد هو وصف لأي موقف فكري لا يؤمن بوجود الله وليست هناك مدرسة فلسفية تجمع كل الملحدين فمن الملحدين من ينطوي تحت لواء المدرسة المادية او الطبيعية والكثير من الملحدين يميلون باتجاه العلمانية .
ولو تتبعنا الشعر الحديث لوجدنا الكثير من هذه النماذج التي تبين عبثية الوجود لدى بعض الشعراء المحدثين .
فمثلاً الشاعر الفلسطيني محمود درويش نجد عنده الشيء الكثير فهو يقول في ديوانه عنوان (الموت في الغابة) قوله :
نامي فعين الله نائمه عنا ...
اين محمود درويش من قول الله تعالى (لا تأخذه سنة ولا نوم) وفي موضع اخر يقول محمود درويش :
انا خُلقنا غلطةً في غفلة من الزمان .. وكلامه هذا فيه طعن ي حكمة الله تعالى من خلق الانسان وان الله تعالى لم يخلق الانسان عبثا وانما خلقه لحكمه .
ومن قصيدة له بعنوان (الهي لماذا تخليت عني)
نجد دعوته لعبودية معشوقته ريتا اليهودية يقول :
بين ريتا وعيوني بندقية
والذي يعرف ريتا ينحني ويصلي لأله في العيون العسلية .
نجد تأليهه لغير الله تعالى و وصف غير الله بالالوهيه فهو يجهل من ريتا اله ويدعو لعبوديته .
ولو جئنا الى السياب نجد عنده احيانا هذا الاتجاه فنجد فلسفته احيانا فلسفة المؤمن الذي يتذكر ربه ويعترف به بأثامه وينتظر المصير الحتمي ، مثلا في قصيدة (سفر ايوب) يقول :
لك الحمد مهما استطال العذاب
واحيانا نجد السياب يثور على الحق وعلى القوة الالهية متمردا على الطاعة المفروضة لأنه لم يجد الشفاء فيقول :

هل تجيب ان سمعت
صائد الرجال
وسحاق النساء انت يا مفجع
يا مهلك العباد بالرجوم والزلازل .
يا موحش المنازل .

ومن قصيدة للسياب بعنوان (في المغرب العربي) يقول :

فنحن جميعا اموات
انا ومحمد والله
وهذا قبرنا انقاض مئذنة معفرة
يكتب عليها اسم محمد والله

نجد السياب قد قرن نفسه بالله تعالى وبالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم)
ويرى بعض الدراسين ان السياب قرن نفسه ومحمد والله اشارة الى طغيان الفحشاء والفساد والقهر الذي الم بالمسلمين في ارض العرب وان كان ذلك حقا ما هو موجود لكنه لا يبرر للشاعر ان يقرن نفسه بالله تعالى وبالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم)
ولو نأخذ شاعرا اخر مثل البياتي نجده يقول في قصيدة
(غانية من العراق لجمال عبد الناصر)

يا واهب الربيع للقفار
ومنزل الامطار في قريتنا الخضراء
ومنزل الامطار في الصحراء

نجد البياتي يخاطب عبد الناصر رافعا اياه الى مصاف (الالهه) ويبرر صورة القائد السياسي وكأنه يملك قدرات فتعالى على قوة البشر ، وان الاخرين ضعاف فقراء يسبحون بحمده وان هذه الحركات السياسية كانت تنظر الى المناضل على انه قديس وطاهر ومثالي لا يرقى الشك الى افكاره او ممارساته عند الجواهري في قولٍ له من قصيدة بعنوان (صبابة شاعر) كانت بتوقيع ابن سهل يقول :

انا ضد الجمهور في العيش والتفكير طراً وضده في الدين
كل ما في الحياة مع متع العيش ومن لذة بها بتردهينـــــي
التقاليدُ والمداجاة في الناس عدوٌ لكل حر فطين

ويصف الشاعر فيها خروجه عن التقاليد والدين وهو ابن العشرين وعبثية اخرى عند الجواهري قوله :

الا انا
كل سكير قضى عن نفسه دين الشرابِ
وانا ثوبي رهن الخمرِ من دون الثيابِ

ولو اخذنا شاعرا اخر مثل الزهاوي بجد عنده العبثية من نوع الخروج على التقاليد والقيم فهو اول شاعر معاصر هاجم العادات والتقاليد والجمود ودعا بشدة الى بند التعصب بكل جرأة فنجده يقول :

ثوروا على العادات ثورة حانق وتمردوا حتى على الاقدار

وجاء له في قصيدة الواح مبعثرة يخاطب فيها الانسان

وتمرد على تقا ليد تفضي الى الضرر

انما الحر من تمرد حتى على القدر .

والمتطلع في ديوان الزهاوي يجد الشيء الكثير من دعوته الى حرية المرآة ودعوته لها بالسفور باعتبار الحجاب قيداً لها .

كما في قصيدة (تباشير الانقلاب)

من بعدما انتظرت حقابا ثارت فمزقت الحجابا

كان الحجاب يسومها خسقاً ويرهقها عذابا

ولو تدبرنا قول الشاعر البصري كاظم الحجاج في قوله :

يا امنا الصحراء .... ضمتنا

ولنفترش بساط عبد الله او نفترش بساط عبد اللاتِ

فكل ما نريده

يا امنا الصحراء

ان يعرف المريض

اسم الداء .

نجد (لنفترش بساط عبد الله او نفترش بساط عبد اللات نجد الشاعر هنا احدث توازي بين عالمين لا يلتقيان فعالم الايمان لا يلتقي مع عالم الكفر ... وهنا جاءت ثنائية متناقضة هي (ايمان / كفر) (عبد الله / عبد اللات) فنجد الشاعر هنا يبحث بأن يفترش بساط الايمان في قولهِ (عبد الله) او بساط الكفر في قوله عبد اللات .

مدخل الى الشاعر حسين مردان

كان شاعرا و اديبا له اسهاماته في تجديد القصيدة العربية و صاحب جرأة الهمته موهبة بارزة من خلال كتاباته و له الآراء العظيمة في الحياة و الاخلاص في الفن و الادب و السياسة ..

كان انسانا شريفا و كادح ادب بحق ، حمل طموحه في كل شيء و اختاره مغامرة الحياة بصدق و قد احبه الصديق و كل الناس .. انه قد عثر على الشعر في نفسه صدفة ، فهو موجود في كيانه كوجود الدم في اي كائن دون ان يعبأ به او يراه ثم تخدشه الحياة صدفة فيحرق في دمه بدهشة ثم يلمسه ليعيده الى جسمه مرة ثانية .

ان شعره يعلمنا ان الوسائل لا الغايات هي التي قتلته و خاصة الغايات سهلة المنال مثل المرأة مثلا بغيا او صديقة او عشيقة .

لقد اصطنع حوارا بين الموت و المرأة في داخل نفسه و لم ينقطع الى اخر لحظة من لحظات حياته و لم ينته حتى بعد مماته .. ان حسين مردان رجل قاحل كالعدم .

و ان الوسيلة مستحيلة و الخلاص مستحيل في عالم تحكمه الالهة و يحكمه اطفال صغار يجرحون الكبرياء و العملقة و مع ذلك يجب عدم الخضوع .

(لأنني اشعر اني سأموت ان لم اواصل الانفجار و لم اتوقف عن الحركة مطلقا و اعصابي في حالة توهج ابدي)

ان الفن لم يستطع ان يكتشف المليون وجه المدفون في باطنه فقد قرر التحول الى الجانب المظلم من القمر و لا بد من اختراع لالتقاط الصور المجسمة لتململ الظل في المحاق النفسي و تسجيل الخداع ان حسين وحده فوق الصبار قطعت حنجرته و وضعها على المائدة لتغني للناس ، و لكنهم شربوا رطوبة قلبه و تركوه لحر الصيف و هو يحمل خط الاستواء في احشائه و اشتاق الى الزمهرير و لكن لم يصل الندى الى قاع الجحيم .

(لحن المدافع و الرصاص [1]
و بأي قلب في غد
ستغوص اطراف الحراب
فئة مهرأة الضمير
محشوة الاحشاء بالخبث اللئيم
خبث تحوم على الصديد بلا عيون
يشدها هدف صغير)

و ان حسين مردان صاحب الاقوال التي وضعت للمرأة خارطتها الاصيلة ..

(نحن الرجال لن نجد السعادة ما دام ذلك الوباء القذر يكمن تحت جلد النساء)[2]

و في الزمن الذي فقدت فيه الالفاظ وضوحها توقف حسين مردان عن كتابة الشعر لينصرف الى النقد و النثر الادبي . و اذا كانت من سمات الشعراء الذين عرفوا كيف يصمتون في الوقت المناسب . و ما يزيد من اهميته ان واحد ممن اثر في الادب العراقي منذ الاربعينات و اسهم في الريادة و عالج بعض جوانب تجربته الشعرية في التنظير و الاشارة الوظيئة و ممن عالج امور العالم نثرا فيما كتب عن السياسة و الحياة في مقالات نقدية متواصلة ..

انه لم يتحدث بإسهاب و مباشرة عن تجربته الشعرية كما تحدث البياتي و نزار قباني ، لكنه تحدث عن الشعر و المفردات ضمن طقوس المقدمات التي ازدانت بها بعض دواوين الشعر لتغطي جانبا من الاضاءة عن التجربة . ففي ديوانه (الارجوحة هادئة الحبال) قال : (اريد ان اقول ان بعض الكلمات الفصحى قد فقدت حيويتها و خمدت فيها الحركة فهي اشبه بكرات زجاجية ، من زجاج كثيف لا ينبعث منه اي شعاع و حرارة في الوقت الذي نجد بعض الكلمات العامية تحتفظ في داخلها بكمية كبيرة من التدفق اللوني و اللهب المشرق و الموسيقى الجادة ، لذلك ادخلت بعض الكلمات العامية مثل : قديفة – شيف – نفنوف . في قصائدي لاني اعتقد ان هناك عددا غير قليل من الكلمات العامية الحية يجب ان تدخل في اللغة العظمى)[3]

لقد عرف الكلمة بانها الكائن الذي يورق في القلب و يورق داخل الصاعقة .. و هذا الطفل المدلل الذي نداريه كما حدقات العيون ... كانت اسفاره خصبة و ملأى بالكلمات و كان سؤاله الدائم (الاسفار هل تجعلنا نكبر ؟) ... كان مردان يحلم حياته اعظم من ان يعيشها لذا فهو يحملها صليبا دائما معه و بالكلمات وضع هذا الصليب على شغاف قلبه فارهقه ثقله و بالكلمات سافر بعيدا عميقا داخل الجسد و داخل النفس البشرية و عاش في الذاكرة و سيبقى طويلا و عبر حياة ملأى باكداس الهموم و الجهد و المعاناة .. وقف مردان بالرفض للتزويق و عاش في العاصفة ما بين عام ٢٧ – ٧٢ و عندما توقف نبضه قضى حياة مدروسة و مكرسة لحب الناس و الشعب و من اجل هذا الحب صار مردان طرازا خاصا في ذلك كله و في الكلمة و السلوك و الرجولة و الشاعرية بعد

---

[1] - مجلة الاداب البيروتية ، العدد السادس ، سنة ١٩٥٤م ، قصيدة الحديد ، ص٤٦٥ .
[2] - قصيدة القصيبة السوداء ، ديوان الارجوحة .
[3] - و يكون التجاوز ، محمد الجزائري ، ١٩٧٤ م ، سلسلة الكتب الحديثة (٧٠) دراسات نقدية معاصرة في الشعر العراقي .

هذا كيف يحق الدخول الى طقوس ولادة و موت هذا الشاعر ... سأعتذر من نبضات القاريء و ادخل في موضوعي المتبقي ...

اولا : الوجودية في شعر مردان

قال الكاتب الجيكوسلوفاكي (بريا) : ((حسين مردان شاعر وجودي النزعة لكنه في طليعة الادباء التقدميين و شعره يحظى باهتمام الناس في العراق لما فيه من جده)) .
فاذا كانت هاتان الصفتان النزعة الوجودية و النزعة الانسانية التقدمية هما ابرز خصائص سلوك شعر مردان .. كان مع الجماهير و هذا هو جوهر حب الناس لمردان .. الشعر .. و الكلمة ... و الانسان .. و الحلم و الحياة .. و حالة السفر الدائمة ان الشعر زاده في هذه الرحلة العميقة المتعبة في الحياة . فان مزحه الدائم و طفولته و حب الناس كانت اروع ما لونت حياته الاجتماعية و خلقت ديمومة ذكراه ليست في الثقافة التقدمية و الحركة الادبية في العراق بل في النضال اليومي .
و اذا كانت النزعة الوجودية سمة من سمات الادب و السلوك ، فهذا الرجل اعتمد ارض الواقع مناخا .
و قد اعتبرت مجلة اوريان الفرنسية الشاعر حسين مردان (بودلير العراق و الخليفة لشعر الغزل العباسي كله) فقد اخذت جانبا من تكوين مردان الشعري و السلوكي ، ففي رحلته خصب من العطاء و نجد ان ديوانه (طراز خاص) الذي صدر في بيروت عن منشورات دار المكتبة العصرية يمثل مرحلة ناضجة من شعر الشاعر . هذا الديوان الذي يبقى محتفظا بطعمه المتميز ليس في الشعر العراقي وحده بل و في الشعر العربي المعاصر من حيث التناول و استعمال المفردة .. و استعمال الرمز .

ثانيا : المفردات الشعبية عند مردان

لقد وضع مردان بجرأة المفردة الشعبية و المألوفة في الاستعمال العامي . وضعها في بناء القصيدة ليس كجزء من ديكور مجاني مفتعل او كجزء من تعميق الصورة و جعلها اكثر الفة و اكثر ايصالا الى المتلقي و اذا كانت جريدة الاهالي التي عمل بها قد شهدت قصائده النثرية في وقت مبكر . كانت القصيدة العمودية تمتلك رنينها آنذاك .
كان استعمال المفردة الشعبية شكل اضافة اخرى لمحاولة مردان الجريئة في بناء القصيدة العربية الى جانب جرأته المشهودة في تناول قضايا الحب و الجسد و المرأة ..
فحين يستعمل مردان المفردات الشعبية فهو يؤكد اصالة و شعبية في ذات الوقت الذي يؤكد فيه وعيه لطاقة هذه المفردة و غناها ليس الفلكلوري وحده و الفني ايضا :

(و انت في نفنوفك الانيق[٤]
طابوحة ترش في وجوهنا البريق)

فلقد تجاوز مردن صيغة التداول التقليدية اضفى على الفستان القا خاصا ، كذلك افاد من اللفظة العامية للفستان نبرات الدفق الحار من التأثير الذي اوجده استعمال كلمات اخرى مثل : الحلقوم – الجمار – القداح – الليط – الخناس ، كما استعمل شيف البرتقال ، و وشيعة الحرير ..
المفردة الشعبية الخاصة التي تضع ثقلها في حجم القصيدة و فنيتها لتعطي نفسها الشعبي غير المتعالي لدى المتلقي حيث يهتم مردان بالمفردة اهتمامه بالإنسان الشعبي نفسه و الذي ينظر الى

[٤] - و يكون التجاوز ، محمد الجزائري .

الساق المتين و يسميه متينا و لا يضفي عليه اي تزويق لفظي غير مألوف ، و اذا كانت هذه المفردة شائعة في شعره الغزلي ، فكذلك فهي شائعة في شعره السياسي صورة و تناولا و تركيبا فنيا و رموزا ، فهو يستعمل (الشمر – العباس ابو راس الحار – يزيد – صاحب الزمان) بمدلولات سياسية معاصرة و جريئة تسبب لديوانه (طراز خاص) الى جانب قصائده العارية و الغزلية المنع من الحكومات اذ انه لا يستعمل المفردات و الرموز الشعبية استعمالا سلبيا او تشاؤميا ، بل يصنع منها مناخا تفاؤليا خاصا معجونا بالايمان في حب الشعب و انتصار الارادة .
ان حبه للإنسان و هو يوظف حياته و قلمه لانبل الاهداف .. و سبب ذلك اختزان الهموم الذي دفع قلبه الى التوقف و هو ذلك الصديق الوفي لكل الناس ..

(و كنت وحدي في الطريق
اصغي لأغنية مخضبة البريق
يشدو بها قلبي الرقيق
اني لكل الناس في الدنيا صديق)

ما الذي اراده مردان من الشعر ؟ في ديوانه قصائد عارية اراد ان يكشط الجلد و يرفع جميع طبقات اللحم مخترقا صلابة العظام للوصول الى حركة الدم لمعرفة العلاقات التي تربط المرأة و الرجل ، فقد ظل الحب خيمة مغلقة ينظر اليها الشعراء كشيء له علاقة بالسماء .

١- كان صريحا في وصف عاطفته الانسانية .
٢- اراد للحب ان يبدو كما هو في الطبيعة لا من خلال التقاليد و المثل الاجتماعية .
٣- التعبير عن مشاعره الفردية عن طريق الاخرين و به ولد شعره .
٤- بدأ بالشعر الجنسي لانه الشعر الذي يشق اعماق الانسان ليصور الانفعالات و الخلجات و المشاعر الرقيقة . (الشاعر الجنسي كغيره من الشعراء الاخرين يبحث عن الحقيقة حتى و لو كلنت بشعة و ابشع ما يمكن فلا يمكن ان يعم الشاعر الجنسي بالانحطاط) .
٥- تأير ببودلير و بالياس ابي شبكة .

لماذا حورب ديوانه قصائد عارية .. ؟

لقد ضاق به الناس و الحكومة و قدم الى المحاكمة فقد جلد الشاعر الناس بسياطهم كما جلد نفسه و كشف عما يخبئونه في اعماقهم ، و ان موقف الحكومة موقف من الفكر و لكن ما الذي جعل الشاعر ينساق الى هذا اللون الصريح ؟ ..

١- بعد الحرب العالمية الاولى في الاربعينات تعرض العراق لهزات اجتماعية و فكرية اثرت في مضمون الشعر .
٢- ملامح التراث الموروث و معاناة الانقلاب السياسي احدث انقلابا في المذهبية .
٣- الحرب فتحت طريق الغرب امام الشاعر و عرفته بالمذاهب الفلسفية و لهذا نشأ شعر جديد وفق مزاج الشعراء و طبيعتهم و ثقافتهم و انتشرت المذاهب الرومانتيكية و الواقعية و السريالية و الوجودية و الرمزية .

اين نضع حسين مردان من هذه التغيرات ؟

يبدو ان الشاعر قبل عنفوانه و جوعه الثقافي و قحطه الروحي و الجنسي راح يغترف من هذه الاشياء جميعها و اراد الصراحة لاختراق الجلد السميك الذي حصن المجتمع و وهم ان القاريء لم يتقبل صراحته فاستفز حسين قارئه ..

(ثق انك لا تفضلني على الرغم من قذارتي الا بشيء واحد و هو اني احيا عاريا بينما تحيا ساترا اذانك بالف قناع)

اثر العوامل النفسية في شعر مردان ..

من قوله (مثلما جئت سوف اذهب لغزا يحتويه الغموض و الكتمان)
لماذا كنتم من عشاقه هذا اللغز ؟
ان حسين مردان موجود في شعره كالدم في جسمه و ان احتجاج الشاعر على مادية العصر و عبودية الانسان المعاصر ، تلك العبودية القاتمة التي تقتل الانسان .
(ان الرجل القاحل كالعدم) كما يخبر صديقه الفنان شاكر حسين ال سعيد .
(قد اقتحمت دائرتي المتجمدة امرأة صغيرة و استقرت في احشائي كالنبلة ، اني اشعر لاول مرة بالاندحار)
و هو يشير الى عالم المستحيل و الخلاص الصعب من حكم الاطفال الجارحين كبرياء الانسان في زمنه و حكم التجار و القتلة و يشير الى عدم الاستسلام فالاستسلام موت (و لأنني اشعر اني سأموت ان لم اواصل الانفجار)
بهذا لم يتوقف عن الحركة في حالة توهج ابدي و هو يمارس قتل جسمه و عندما يرى ان العظام ملأت يديه سيترك شفته .
و كم من محاولة قالها انه سيترك نظم الشعر لانه لم يصلح للتعبير عن الجنون و هو الذي قد وصل الى المنتهى و لم يجد ما يثير دهشته .
(منذ عشرين سنة و انا انتج البهجة لافئدة الاخرين فماذا كانت النتيجة و ها انا وحدي فوق افرست امضغ الصبار)

الغزل عند حسين مردان [٥]

١- لقد كان الغزل عنده بوابة لا بديل لها و من نبضاته في مجموعته قصائد عارية جرب حسين مردان المرأة البغي بعد ان فشل في تجربة المرأة الحبيبة و ان النجاة يجدها في ما يعانيه عند هذه المرأة البغي و قد قادته رغم مقدرتها الى شاطيء وحل العفن فتمرد عليها و هو يبحث عن شاطيء النجاة .

(ضقت بالأرض و السماء فثوري
يا براكين نقمتي و شروري
و اخنقي كل فجوة من خلايا
عقلي الفذ بالغناء المرير
ما حياتي و لم اجد في حياتي
غير حزن يذيب صم الصخور
لعنة جئت للحياة و امضي
مثلما جئت لعنة للقبور
مسني الحب فأنقلبت ملاكا
مفعم الروح بالرضا و الحبور
و جفتني التي عشقت فماتت
جذوة الخير و المنى في ضميري)

[٥] - مجلة الاديب المعاصر ، العدد الرابع ، السنة الاولى ، اذار ١٩٧٣م .

هكذا يتعمق في صورة الجفاء اليائسة التي عشقت في ذاته و ماتت مع جذوة الخير و الاماني في اعماق نفسه ...
ستة ابيات تقدم هويته الروحية و صدقه اليومي فلم يضق بالارض و يطلب من البراكين التي تسيطر على لفحته و شروره ان تثور من خلايا عقله المتفتح بالحزن ان تختفي الفجوات و ما هي حياته التي لا يلتقي معها به الا الحزن الذي يذيب الصخور و يزيد التشاؤم حزنا في لعنته و ولادته الى الحياة و الذهاب الى عالم الموت و رغم ان لمسات الحب الطاهر التي مسته فانلقب ملاكا بروح مفعمة و رضا و اقتناع و لكن ما عاشت جذوة الحب عنده ..
فهذه نقاط التناقضات عند حسين و كأنه يريد ان يقول ، اريد و ما اريد و اختار و ما اختار !
٢- في ديوان العالم تنور يحاول الاقتراب من المرأة البعيدة عن محطات ثغره و يظهر عندها محطات اختلافه مع العالم الذي ولد فيه هتلر ..

(سأبتعد عن هذا العالم ..
الذي مصيره البوار
فاذا لم تحرق الشمس الارض
فسوف تحرقه قنابل الكوبلت)

فهو يهرب من عالم التجار و الاقطاع و صراعات المادة و يجد نفسه مغتربا و عندما يلتفت الى جروحه يعبر عن سخطه لهذه الانانية ...

ليس في العالم من يعمل لاجلي [٦]
من يبكي لعذابي
اذن لتنقطع كل الحبال التي تشده للسماء
فالتراب وحده الذي يفهمه

٣- في مجموعته صور مرعبة يجد نفسه فيلسوفا اكثر منه شاعرا و ان سبيله التجربة لا القراءة .
(اني انظم في اليوم قصيدة و اكتب فصلا من مسرحية و اقرأ كتابا و اسمع الى حديث عشرين صديقا و اجيب على خمسين سؤالا و اشرب نصف قنينة من الخمر و ادخن مائة لفافة و مع ذلك فالفراغ يسحق وجودي)
هل لنا ان نسأل هل احب حسين مردان ، هل خضع للحب هو الذي يقول :

(في اليوم الذي سأخضع فيه للحب سأبصق على عظمتي)

و هو الذي عرف الحب بالضعف :

(لا اريد ان اكون ضعيفا في الوقت الذي اريد ان اصبح الها)

لقد تمرد حسين مردان على الحب و رسم له صورة بشعة في نظر الاخرين و اراد ان يعري مجتمعا محنطاً بعلاقات و قناعات برجوازية و ان يحطم الزيف و لم يكفه الايمان بالعبقرية في وجود الاسلوب الذي يتحدى به التحديات و محاولات القتل التي جابهته بها الرجعية و البرجوازية و بالرغم الانا التي تضطهده احيانا و رغم انه لا يرى حوله غير رؤوس الضفادع فهو لا يستطيع الابتعاد عن الناس لأنه يموت بهذا الابتعاد و يبث الثورة في قصيدته رجل الضباب .

كيف نظر حسين مردان الى المرأة ؟

[٦] - العالم تنور ، ص٢٤ / ١٦ .

ان نساءه و عاهراته فقيرات يغرقن في بؤس فقرهن و يتسترن وراء الطلاء الرخيص مثل بقية الناس ..

(فاستهزئي يا ابنة ادم
كلنا في الاصل للطين المدنس ننتمي
و تهتكي و هبي لكل ميتم
ما يشتهي من جسمك المتضرم
و تخدري بالموبقات فليس في
هذا الوجود سوى الشقاء المؤلم)

و يقف مدافعا عن النسوة اللائي دفع بهن الواقع الطبقي الى هذا الوضع ..

سموك عاهرة و لو عقلوا لما
نادوك الا بالملاك المجهد
يستحقرونك يا بغي و انهم
لأشد منك حقارة فتمردي

ثم اراد ان يفهم الناس ماهية الرذيلة فلها ستار براق يخلب كل من كانت تجاربه في الحياة قليلة و اطلاعه على الرذيلة اطلاع محدود .

المرأة الفاكهة الشهية ..

انزل الله هذه الفاكهة في لحظة من جنون الشاعر و لم تنس الشاعر و تذكره به ابدا بالنهاية المحتومة فيصير الموت اشد قسوة ..

ففي غد سيسقط الجدار
و يهبط الظل على عالمك المضيء
فتحفر الايام فوق صدرك المليء
بالنار و اللؤلؤ و التراب
لن يصدح الشباب فوق غصنك الوريق
ففي غد سيهفت الحريق

١- و من الربيع و الجوع ينقل اعترافه بحب المرأة .. و قد اكتشف ان الجنس و المرأة لا يمكن ان يكونا الا جزءا من القضية في احسن الاحوال ، و الحرب التي ينبغي ان يشنها من اجل تحرر نفسه و تحرر المرأة و الشعب و اقتلاع كل جذور الفساد ..

اليس حسين الجراح التي فتحتها في اعماقه المرأة . ان الثورة تسري في دمه و يختلط دم المرأة و دم الطغاة تحت ضربات مبضعه .

فالطغاة و المرأة عند حسين سواء ، كلاهما يجرح عظمته و هو يأبى ان يحني رأسه و يتمرد ، و ان التي تجبره الانحناء لها لم تلد ان ايمانه بالحب و الحب مصدر عذابه لكن (العظمة عنده اعلى اشكال القتال ، القتال على كل الجبهات و في مختلف الميادين)

كانت المرأة انشودتي الاولى
و انشودتي الثانية كانت الشهرة
اما انشودتي الثالثة
فهي انشودة الكفاح ...

٢- عظمة الحب عذابه بأشكال القتال ... .

فالمرأة عنده لغم و هو يعرف كيف يفجر هذا اللغم في الداخل فليس الحب سوى طعم واحد و لكل امرأة اسلوب في الحب و اللذة الكبرى ليست في الحب نفسه و لكن في الاسلوب ..

هذا هو الحب جرح غائر و يد
خبيرة و صراع يحلك العصبا ..

٣- حسين شاعر حسي و غريزي فالمرأة عنده جسد ثائر مترع بالشهوة ممتليء بالرغبة و ما على الرجل الا ان يجتلبه .

ثالثا : انواع شعره في الغزل ...

أ- الباب الحسي الجمالي

حاجبها وتر .. وجنتها ثمر
و عنقها نهر
يجري به الحليب و الخضر
خد ابيض و شفاه سمينة
و صوتها ..
بلابل تنشد في الليل على التلال
احب ان امسكه
اعضه
اضمه ليهدأ الخبال
و الحب ان لم تلتصق مرة
سالوفة مجهولة المولد

ان المحب الذي لم يتمكن من الوصول الى العنقود فمن الخير له ان يقطع شجرة الحب من قلبه ذلك ان الشهوة اذا لم تجد جسدا تأكله فهي تأكل جسم صاحبها .

و قد تنتظر و يطول الانتظار لكنها لن تأتي فأتي الموت هذا القرين اللعين للمرأة فيموت المحب و الحب و الاحلام و احزان المساء .

ب-الوصفي الداخلي :

و انا و احزاني و احلام المساء
سنظل ننتظر اللقاء
و نعد ساعات الشتاء
حتى نعود
و اذا نموت
و اذا نموت انا و احلامي و احزان الشتاء
فلقد تعود و لا ترى ..
غير الصدى

هذا التيه و الابحار و السفر الطويل للبحث عن الامل الداخلي الذي يعيش في الاعماق .. ان ثمة بحرا من التيه يغرق فيه الشاعر .. تتألف عناصره ، المرأة البعيدة المنال . فهو حائر تائه يسير بلا مصير ..

الى اين لا ادري
اسير بلا هدى

احدق في كل الوجوه و اضحك
و ارنو الى ظلي بعين بليدة
يغلفها لون من اليأس مهلك
الى اين لا ادري
اسير اعاني
ارى شبحا مثلي عن السم يبحث
امزق صدري .. بالدخان و اكفر
و ابصق حولي في عناء كأنني
اقول لحظي منك يا حظ اسخر
الى اين
و انهدت خطاي و لم اعد
ارى عبر وجه بالخداع مخطب
و خال صغير فوق خد مجعد
و خصلة شعر فوق جفن معذب
هنا..
خلف ذاك الباب فوق وسادة
مطرزة الاطراف تغفو عشيقتي

ج- الرمز البديل المؤقت عن الحب :

في قصيدته هلاهل نحو الشمس كان يحب امرأة جميلة كقنديل من ماس و كان جسمها القهوائي لا يخرج من رأسه ابدا فهي دم قلبه ، ينام و ذراعاها على جفنه و وجنتها على فمه و لكن ما ان تفجرت ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨م حتى اصبح لا يجد الوقت لمناجاة حبيبته الحلوة ..

سأترك الحب الى حين
الى ان نجد العسل لكل طفل
و عندئذ سأعود
الى حبيبتي الجميلة كقنديل من ماس
و الى جسمها القهوائي

هم يعتقدون ان الكتابة عن الحب لا قيمة لها بالنسبة الى واقع مرير و ان التحدث عن النار هو الذي يخدم قضية الانسان المعاصر .. و الحب في رأيه افضل من التحدث عن النار و الكفاح . الوطن لا يقل عنها اهمية و لا ينفصل عنها و لولا الشعور بالذات لما وجد الحافز للتضحية و الحب اهم الدوافع الانسانية و اكثرها استفزازا للعمل .

و ان شعر مردان في قصائد عارية و اللحن الاسود و شعره النثري قد يكون متأثرا (بافاعي الفردوس) و في النثر بالمنثور اللبناني و مترجمات بودلير فهو يظل دائما علما عليه في العراق .

د- المفردات الشعبية في غزله

وبالرغم رهافة حسه و اعتماده على ذوقه الخاص و مجافاته لعلم الاصوات اللغوية كثيرا ما يخطئ الطريق و خاصة في ما اراده في استعمال بعض الالفاظ العامية كما اسلفت مثل : قديفة – شيف – نفنوف ، و يظهر ذلك من خلال استعمالها و المكان الذي احبها فيه . و من قصيدة (فم حبيبتي تين) :

و شيف من البرتقال تشيب على قلبه الخرف

و من قصيدته السمراء الصغيرة :

بسيول ضحكاتها الطليقة
و بلون وجنتها الانيقة
فبكل منعطف حديقة
اصباغها من ذيل نفنوف خفيف

هـ - استعمال الالفاظ ذات الغريزة و الدلالة الجنسية :

فهو يتمتع بذوق عال و حساسية اصيلة غريزية في انتقاء الكلمات ، ففي قصيدته (العذراء و القرد)

و يخض اسفلها الحنين
فتعود تمسح بارتخاء
فخذا يرنحه العياء
لتشب فيه الكهرباء

و يقول في قصيدة (هكذا يغني الدم)
ان الفحولة زند تهفو اليه الخصور
و كل انثى ستنزو اذا تعالى الزئير

فهذه الحساسية ظاهرة في مقدرته على ترجمة نشيد الانشاد عن العهد القديم .

و- البحث عن الكلمات التي تدله المرأة و تفرح قلبها و تنطق بوصفها :

(اه لو استطيع ان اخلق كلمات جديدة كلمات في اقصى درجات الرقة بحيث تليق بوصفك) (الازهار ، ص٢٨)

و لكن هذه المرأة التي بحث عنها هي التي قتلته فقد كان بحاجة الى راعية طيبة القلب لا تتركه وحيدا في الصحراء .. طيبة القلب و بدلا من ذلك دفعت به الى المسلخ .

ز- القصص الجنسية الاجتماعية و تأثره بعمر بن ابي ربيعة ففي قصيدته (الحصوة) :

و اقتربت خطوة كأنها غنوة
تصدر عن مغارها الغزوة
فلم ازل اصب في طريقها النشوة
و اسكب اللطف على نوابض الجفوة
حتى اذا مالت بها الشهوة
و انغلقت في قلبها الحصوة
و لم تعد منيعة الصهوة
جاءت و في سيقانها دعوة
تقول لو تفرشني عنوة
و تمتطي الهرة بالقوة
تململ الحيوان في الهوة
يطلب لحم المرأة الحلوة

فنرى هذه القصة التي يرددها في المغارة و الكلمات السهلة و التجربة المنسجمة الصادقة و القدرة المتناهية و الكلمات المباشرة في وصف المرأة . (فخذك السمين – ردفك الثقيل) :

فكل شيء فيك يا سيدتي جميل
في منتهى الجمال
فشعرك الغزير
بيدر ريش اسود تنام في مفرقه الطيوب
و ثغرك الصغير
علبة حلقوم على شفاهنا تذوب
و جيدك النضير
شباك عاج حوله قلوبنا تلوب
و رصعة في خدك الاسيل
يا لخدك الاسيل
بحيرة تطفح بالضحك و بالدلال
يشرب في شاطئها الحمام
حلاوة الهديل

ح- التكرار في القصيدة ..

انه عنصر اساسي لأنه يحدث نوعا من التداعي الذهني عند القاريء و ينبه الى الحوار الخفي الذي تدور عليه القصيدة و لا تخلو كل قصائده من التركيز على عبارة تؤكد فكرة القصيدة و لا توجد قصيدة لدى حسين مردان و خاصة القصائد المكتوبة بطريقة الشعر الجديد تكاد تخلو من التكرار .

رابعا : من هي المرأة التي تغنى بها ؟

في رسالة ذات بعد واحد يجسد حسين مردان ما يمكن تسميته البعد الثالث في حياته و هذه الرسالة موجهة بكل ما في اعماقه من حرقة و الم الى المرأة التي تغنى بها اكثر من عشرين عاما . (بعد كلام كثير اقول يا سيدتي ان قلبي يتضخم حتى ليخيل لي ان جسمي كله اصبح قلبا ، فمنذ سنين طويلة و انا الوك اسمك الجميل ، اداعبه .. اعضه ثم اعود فأفرز حروفه و اضعها فوق لساني و فجأة ازدرده [٧] و اتغذى به كي ارجعه بعد ذلك الى شفتي قطعة لبان لا تجف لانه كل ما استطعت الحصول عليه في الحياة بل ان اسمك يا سيدتي هو حياتي اخطه على الورق و انشره على المائدة و ارشه فوق وجوه كل الناس و في الليل اضعه بجانبي ليغني لي عن العشق و عطر الزهور الغريبة حول حزامك الحريري و هو يتحول و يمتد في احلامي الى بستان مكهرب بالموسيقى و الغناء و عندما يضربني الزمان بسهمه الوذ بما فيه من حرقة لحنان و عذوبة النداء الذي لا يخيب) .. انه حاول ان يفلت من خيوط الحب الذهبية بالارتماء فوق عدد لا يحصى من الاسماء المتخمة بالاغراء الا ان الابتسامة التي تستقبله بها منذ عشرين عاما لم تتبدل ، و في مرضه ما قبل الاخير يكشف حسين و ملامح الموت في قلبها الضحوك . فقد قيل لها ان يذوب في المستشفى و انه قد يموت فجأة و مع ذلك لم يخطر بعقلها الصغير ان تسأل عنه مجرد سؤال . (اي جحود ان تنسى المرأة الشاعر الذي صاغ قطرات دمه اغنيات لعينيها) .. فيودعها غير اسف الا على الايام التي ضاعت في اللعب مع السراب و لم يجد سوى العودة الى الفقراء ، انهم اصحاب الثقة و الحب الحقيقي .

الاثر الطفولي في حسين مردان :

[٧] - ازدرده : ابلعه .

كان وحيدا بلا اب ... و هناك (نهضت لزيارة امي و عندما وقفت بالقرب من جفونها تمتمت : اه يا ولدي المتشرد ... و بكيت من كل قلبي ، هذه المرأة الوحيدة التي تحبني) (الازهار ، ص٧٤) و كم هو صعب ان يبكي المرء من كل قلبه ، و كم هو قاس ان يضن المجتمع على شاعر بامرأة لو ان خصلة من شعرها الذي يعبده لامست فمه لحولت الفرات الى اغنية تحمل كل طفولة العالم .. فقد ورث الفقر لذنب لم يقترفه (لقد قتلت السياب امرأة .. و قتلت حسين مردان امرأة ، و ستقتل شعراء اخرين سنعلن عن اسمائهم في حينه امرأة) لقد تحول الشعراء الى رماد و تحول الرماد الى وردة رائعة و جاءت امرأة صغيرة قطفت تلك الوردة و حملتها في مزهرية من الكريستال الاخضر و وضعتها في زاوية مضيئة .. لقد عاش و مات غريبا غير مفهوم حقا كما قال منذ البداية .

(انا في ذاتي سر مغلق لا ارى في الناس من يفهمني)

ان حسين مردان بحيرة من كحول و لم نر التجاعيد في قلبه هذا البناء الضخم ، يسهر مع كتبه سرطان يأكل احداقه ... و عندما تنطبق الساعة الثانية عشرة من منتصف الليل تنطبق الف مليون شفة خشنة على الف مليون فم حريري و تمتد الاصابع الغليظة لتعزف على الخصور اللينة كالصوف اغاني الحب)

خامسا : تحليل لبعض قصائد مردان :

الحديث عن قصائد طاووس الغربة و المنفى و الصدق في مدائن الحلم الاخرى .. يستبدل سيزيف صخرته بجمجمة شاعر ..

هل تسمعين ..
في الشرفة الخضراء عصفور صغير
يشدو بأغنية مقدسة الرنين
هل تسمعين ..

لقد بدأ بحالة الانتباه المفاجأة من خلال شرفة هذه الاميرة التي يتسلقها العصفور الرمز الذي يغني اغنية العشق المقدس ..

اني احب الصيف و اللهب اللعين
و بخار انفاس يقطعها الحنين
اني احبك شهوة هل تفهمين ؟

هكذا يربط بين اصداء التعب و انفاس الحيران و هو يصف هذه الانفاس المتقطعة بالبخار .. ثم يعترف بكل صدق بهذا الحب و الشهوة .. و يكمل في سماع همسها ...

انا لست باردة الجبين
و تململت شفة يمزقها الجنون
و تصاعد الشبق الغبي الى العيون
و ترنمت قدم و غمغم مبسم
و تجمعت قبل يؤرقها دم

ما هذه التنقلات بين عالم الفرح و الحزن و هذا الترنيم للجماد و غمغمة للمبسم و حيوية القبل المؤرقة بالدم ثم ينساب الصوت الاهيف فتكسر و كما سبق الشاعر بان الغصن الاهيف و الطول الاهيف و هو يضع هذه المفردة للصوت و اضاف له صفة التكسر و ان فيه من الاشواق ذات اللون الاحمر ..

و انساب صوت اهيف يتكسر
فيه من الاشواق لون احمر
اني اتيت مع الصباح
نشوى ترنحني الرياح
لاشم رائحة الاقاح
من عنقك البض السمين
اهلا بزنبقتي الصغيرة
اهلا باحلام الظهيرة

و يستدرك حالة الترنم مع عاصفة الريح و من خلالها يشم العطر الاقاحي ... ثم يرحب بهذه الاميرة التي تأتي مع احلام الظهيرة . ثم يستطرق الاعجاب اكثر ...

هل تشعرين ..
حتى حديقة بيتنا حتى السياج
يهتز من فرح و يحلم بابتهاج
و باهتياج ..
بعشيقتين صغيرتين نهداهما عسل و عاج
و الان هلا تسمحين
قومي اطرحي هذا الشعار
فقد انقضى نصف النهار
قومي انظري هذا اللظى المتفجر
فيثور صدر اشقر
لم يستمع يوما لهمهمة الرجال
ابدا .. و لم يرشف صداه سوى الخيال ..

هنا وقفات التأمل البارزة .. بالمقارنة بين الالوان و تعاقب النهار و شدة اللظى المتفجر من الصدر الاشقر ... و هو يبين حالة هذه الاميرة التي لم تستسلم لرغبة ما .. و هو يعترف بالخيال و هذا اخر ما يحلم به .. و يرهن في اخر القصيدة بان تتقدم له .. ليفرش صدره الحرير .. و هذا هو الصراع و نزيف التعب .. حتى يموت القلق و الحرمان ..

فتقدمي فهنا فراش من حرير
نحن الحرير على الحرير
هل تدركين
هيا فما احلى الصراع
هيا لنغرق بالعرق
حتى اذا ارتعش النخاع
فسوف ينطفئ القلق ...

عندما يمثل شاعرنا الكبير السياب في قصيدة النهر و الموت ... فهناك النهر هو الحياة جارية جريان هذا النهر . و هو ينظر الى الموت الجزء الثاني من كينونة الانسان . اما الشاعر حسين مردان فهو يتخذ من الحب الطرف الثاني .. و لكن كيف يبتدأ عنفوان القصيدة بهذا السطر الواحد : (انا لا استطيع ان انسى الموت الا بين احضان امرأة جميلة)

نعم فقد كانت المرأة موضوعه الخالد الدائم و لو عمنا لحظات هادئة مع قصيدته ..

وراء سور الليل في صمت
من عالم الصمت
يصرخ بي صوتي
يصرخ بي عبر المدى صوتي
كأنه موتي
الفجر لن يطلع لن يأتي
و انت يا انت
يا فوهة الثغور يا اختي
في الشوق و الموت
يا ضربة الكبريت للزيت
النور لن يشرق من الميت
لن تطلع النار من الميت
و فجرنا لا تفزعي
الفجر لن يأتي ..

اظن ان هذا السور المطوق و الليل العاصف في صمت الحياة يصرخ الصوت مناديا عبر المسافة . انه بشارة الموت .. و بانتظار الوليد .. الفجر ..

و من قصيدته التائية (المطهر) ابتدأ بشرح بعض ابياتها بقوله : (ان الحب هو الشيء الوحيد الذي ينقذ الرجال من عفونتهم) .. احلى و اروع ما في الشاعر حسين مردان هو الواقعية في المباشرة و التقريرية في ابداء رأيه دون خوف فهو يرصد واقع الحياة و يرى رائحة العفونة في الرجال ..

انت يا فرحة الربيع بصدري
و انفجار الشعاع في نظراتي
انا لولاك لم اكن غير جسم
ذابل الجسم متعب الخلجات
يبصق العمر في دروب الخطايا
قطرات تفيض باللعنات
فعلى كل نابض منه ذكرى
قبلات محمومة الهمسات

يبدأ بالمخاطبة المباشرة و كأنه يقف امام هذه الاميرة التي هي فرحة الربيع بصدره و هذا الصدر هو العشب و الاخضرار و انفجار الشعاع في ليلة الميلاد في كل نظرة من نظراته .. فهي الشعاع و النور الكبير .. ثم انا .. و هذه الانا الذاتية التي يتناول بها عوامله النفسية بالاعتراف انه لولاها لما كان غير جسم ذابل اللحم متعب الانفاس و لن يكفأ العمر الا بصقات محمولة اللعنات .. و لكن لماذا الانفجار في وسط القصيدة بعد الاستسلام بالحقيقة و البوح بالأثر المباشر لنقرأ :

هكذا كنت يا فلانة وحشا
شرس القلب فاجر الرغبات
يعلك الموت جانبيه فينزو

يتفل السم في بقايا الرفات
و يريق العظام لونا غريبا
فوق صدر مدنس الرعشات
فارسلي عينك العزيزة نحوي
تغرس الورد في صحاري حياتي
و ترش الضياء بين خلايا
جسد ذاب في يد الموبقات

لماذا تحولت الى وحش فاجر و شرس تفجر في رغباتها ... و تعلك الموت و تبصق السم على جثته و رفاته و تحول العظام الى اشكال غريبة ... ثم يطلب منها ان ترسل عينها لغرس الورد في صحراء حياته ... و ترش الورد لخلايا جسده .. حيرة حقا في تسعة ابيات يبدأ و يتوسط في الهجوم ثم ينتهي بالتأمل...

سالوفة الحب ...

لماذا يكتب حسين القصيدة و بعد ان يحصر عنوانها الكامل في سطر واحد مثل (الحب بذرة لا تنبت الا في تربة من نار و لا تورق الا اذا سقيت بالدم الابيض)

اعوذ بالشيطان من نظرة تغوص في قلبي كالمبرد
من شفاه لو سرت نارها يوما الى ثغري و لم تبرد
و من قوام لين الملتوى و حاجب كالشفق الاسود
يا انت يا ارجوحة لم تزل هادئة الحبال و لم تصعد
متى يبث الفجر اضواءه و انت كالفجر على ساعدي
يرعش كتفيك صدى قبلة محرقة كصخرة الموقد
و يزفر الشوق على حلمة مترعة باللهب المرعد
فينثني ساقك انشوطة تشنق ظهر الشاعر الملحد
و الحب ان لم نلتصق مرة سالوفة مجهولة المولد
غبية من تقضي ايامها وحيدة في ظلمة المرقد
لكننا و الارض محدودة سنلتقي يوما بلا موعد

حقا لأنها لسالوفة جميلة جدا .. تبدأ بالتعويذ من الشيطان و التعجب من النظرة الغائصة كالمبرد الحاد الى القلب و من الشفة عندما تسري الى الثغر المتلهف و من القوام اللين و الحاجب مثل الشفق الاسود ... ثم يخاطب هذه المرأة العجيبة و انها ارجوحة هادئة الحبال ... ثم يسأل متى يرسل الفجر اضواءه على ساعده و متى ترتعش القبلة في الوداع على اكتاف حبيبته و يزفر الشوق على الكلمة المترعة باللهب . ثم يصف الساق الذي في انثنائه يشنق ظهر الشاعر الملحد و هو يعترف هنا بالحاده من اجلها ثم يضع الحل بان الحب اذا لم يلتصق الحبيبان ما نفعه ..
فهو مجهول و سالوفة ضائعة .. ثم يعمم ان المرأة غبية اذا بقيت وحيدة في رقدتها بعيدة عن حرية الحب .. و يدخل الى باب الامل و يجيب على توقع التفؤل .. ان الارض محدودة الجهات و لابد من اللقاء بدون وعد ...

قصيدة العذراء و القرد

و كما اعتاد ان يكتب سطره الاول في افتتاحية كل قصيدة يقول في قصيدته الغالية : (ان المرأة لغم من البارود و اصابع الرجل وحدها هي التي تستطيع ان تفجر ذلك البارود) و **الليل جاء**

فتكومت تحت الغطاء ...
عذراء يصبغها الحياء
راحت تدلك بارتخاء
قمرين في صدر بديع
و برأس اصبعها الرفيع
مفتاح جرس الكهرباء
فتثائب القرد الصغير
فمضت قصور في الخيال
رجلا قوي الساعدين
يحتلها في ساعتين
فتقوم في قبلاته
و تذوب في لمساته
و يخض اسفلها الحنين
فتعود تمسح بارتخاء
فخذا يرنحه العياء
لتشب فيه الكهرباء

في اعتقادي ان هذه القصيدة الفاحشة التي يظنها القارئ و التي يحكي بها قصة هذه المرأة العذراء مع القرد المتوحش الذي هو الرجل .. لا توجد في مفرداتها اية صعوبة قصيدة الطابوحة :

لم تنهض الطيور
و الليل ما زال هنا
يوزع الندى على الزهور
فتصعد العطور
غمامة تنزل فوق خدك الوليد
و لم نزل في منتهى السرور
نرقب كيف يبزغ الصباح
من ساقك المتين
و نملأ الكؤوس من جديد

يقف هذه المقدمة السريعة في بلوغ درجة صمت الطيور التي زار ظلمتها الليل و هو يوزع الندى على الزهور التي تصعد عندها رائحة العطر مثل الغمامة على نهدها الوليد .. و لم تزل بالرغم من هذه الحالة في عالم السرور ننتظر و بتفاؤل ببزوغ هذا الصباح من اين يتجه الى المرأة حتى يملأ الكؤوس ثانية

بالصبر و الخمور
ليستقر الشوق في الصدور
و يهدأ الصباح
الموج فوق خصرك النحيل

و الليل ما زال على الزهور
ينفض عن غليونه النعاس
فيصمت الرنين في النحاس
ونحن من حولك يا نافورة العبير
يذبحنا الحبور
فنمضغ التبغ بلا شعور
لكنني وحدي انا الحزين
وحدي انا الحزين
يلهث في عروقي الحنين
بغفوة على نهار فخذك السمين
و جرعة من ريقك الثمين

لقد بدأ يملأ الكأس بشيئين هما الصبر و الخمر حتى يثبت هذا الشوق في الصدر و يهدأ الصباح فوق خصرها النحيل و ما زال الظلام مطوقا هذه الزهور حتى ينفض من غليونه النحاس و ثم يستدرك حالة الجمال في صوت الرنين الساكت في النعاس و يشير الى صورة التجمع من حول نافورة العبير فالحبور هو القاتل و نمضغ التبغ بدون شعور و هو لوحده ملك هذا الحزن اللاهث في عروقه الحنين و هو يبحث عن غنوة فوق فخذها السمين

و انت في نفنوفك الانيق
طابوحة ترش في وجوهنا البريق
و عندما ادخل كل ردفك الثقيل
يا لردفك الثقيل
في مقلتي يجرحها رطل من الفضاء و الحرير
عندها اود لو اسال
اانت يا اعز من روحي
و يا احلى من النور الى الضرير
كيف ترى يحملك السرير
و قبل ان تستيقظ الطيور
و قبل ان يرتحل الليل عن الزهور
و قبل ان اموت
اريد ان اصرخ فوق غابة السكون
فكل شيء فيك يا سيدتي جميل
في منتهى الجمال
فشعرك الغزير
بيدر ريش اسود تنام في مفرقه الطيوب
و ثغرك الصغير
علبة حلقوم على شفاهنا تذوب
و جيدك النظير
شباك عاج حوله قلوبنا تذوب

و رصعة في خدك الاسيل
يا لخدك الاسيل
بحيرة تطفح بالضحك و بالدلال
يشرب من شاطئها الحمام
حلاوة الهديل

لقد وقفت هذه القصيدة على الاركان الاربعة :

١- وصف الليل و الطيور و الغمامة و الكؤوس .
٢- الصبر و الخمر
٣- الطابوحة
٤- وصف الشعر و الثغر و الخد و الجيد .

و في كل ركن منها قد ابدع في وصفها هذه الحبيبة التي سلبت عقله .. و لكن لم اختار الطابوحة هذه ؟ و ماذا يقصد في وصف نفنوف حبيبته و ما الذي يربط به هذا الوصف فكأنه يشبه هذا البريق من نفنوفها في لون الطابوحة الظاهرة في اجواء السماء و بغزارة تكون تجمعا له بريق واضح .

قيل في حسين مردان :

عنك وحدك حين اتحدث يمل صوتي امتدادا و دفئا و عمقا .. ايها الفرح المتنقل بين الشفاه و بين المنايا .. ايها المتوسد زهو جوانحنا .. انت وحدك تمنحني عنفوان البكاء ...

محمد سعيد الصكار

تصعد الان سلمة ..
فوق جفنيك زنبقتان
و في شفتيك داره
كل الكؤوس التي كنت تهرب منه اليها
و غربة كل المرافيء

خليل خوري

لا تستطيع ان تنغمر في حب امرأة واحدة و لا تستطيع ان تعيش دون عشيرة من النساء لانك تذبل في حوض الملل و الخوف الاسود .

لقد توسدت فراش الالم و حملت معك سجادة احلامك و احزانك و همومك من درب الى درب لكنك لم تستطع الاغفاءة لان بئر الملح اتخذ من اجفانك حديقة و لان الفجر كان يسير تحت قدميك مسامير و كانت الروح العصرية تدفع بك من ملجأ الى اخر ..

هل وفيت نذرك و قبلت كل عمود في شارع الرشيد لقد ذبحت قلبك عصفورا فوق الورق و دفنت جثمان ذاتك من اجل ان تطرد منها طيور السأم و الحزن و غنيت سيمفونية الفرح الكاذب و كنت الصادق ..

كم كنت رائعا عندما طلبت اجراء عملية زرع الحب بدلا من زرع القلب في جسدك .

يوسف الحيدري

هدية البحث : قصيدة الباز

لا تبسمي . لو كنت اعلم ان قلبك من زجاج معتم
لم ارم وجهك في دمي
فامضي و لا تتكلمي
فقلد مللت مللت اسمك في فمي
و الحب ان لم يشرب الشفتين بعد تضرم
و يلز لحم المعصم
و يدور قرب الحلمتين و يرتمي
هو صورة لم ترسم
و فقاعة بيضاء تسبح في غدير مظلم
و انا المحب البرهمي
لا استسيغ السجن بين اساور و خواتم
حتى رأيتك فاستفاق الله في جسدي الظمي
و سرى الضياء بوجهي المتجهم
فغدوت مثل الطفل يفرح بالحديث المبهم
و نسيت اني كنت اركض خلف كل محرم
و اطوف في الحانات غير ملثم
و اتيت نحوي كالقضاء المبرم
فرفعت خدك فوق صدري وردة لم تلثم
و نسجت حولك الف رؤيا من حرير الانجم
فاذا طربت و طال فيك ترنمي
غلفت عينك باللظى و العلقم
و عفوت عنك و رحت اسكب في يديك تألمي
فمشى الغرور يلف خصرك بالدلال المجرم
و سحبت اصبعك المندى عن فم لم يفطم
فحملت احزاني و عدت الى ظلام الميتم
فاستقبلتني في الطريق جهنمي
فخذي عطورك و اسلمي
فالنار توشك ان تفجر اعظمي
و انا اخاف عليك من غضبي فلا تتقدمي
لا تندمي
ما دام يوجد في زوايا المبسم
ورد و ظل قصيدة لم تفهم
و جناح عصفور و سلة عندم
و اشارة حمراء تكشف عن كنوز المنجم
فغدا سيحملك الربيع الى غرام اعظم
لا لست بالمتبرم
فلقد نزعت ثيابي السوداء بعد المأتم

و نهضت اجمع كل اسلحتي التي لم تثلم
فحرارة الاخلاص للشعب المخضب بالاسى لم تهدم
في قلبي المتهدم
و لسوف اهجر كل من لا ينتمي
لمسيرة الفقراء في درب النضال الملهم
و اصوغ للأحرار كل ملاحمي
و ارش فجر الكادحين على جفون النوم
لتحز اظفار البزاة السمر بطن الارقم
فارى القيامة في جبيني المعدم

خلاصة الغزل عند حسين مردان

١- شكل المرأة :

ان حسين مردان رسم للمرأة اشكالا كثيرة في قصائده و نثرياته لا يستطيع ان ينغمر في حب واحدة دون عشيرة من النساء فهو الرجل الذي حكمت عليه الالهة بالوحدة و لكن .. ما هو شكل المرأة المطلوب

١- ذات وجنة مستديرة كقرص الجبن .
٢- ذات سمرة معجونة بالحليب ترش الجاذبية لمسافات بعيدة .
٣- ذات جسد ثائر مترع بالشهوة و ممتليء بالرغبة .
٤- امرأة حاجبها وتر و وجنتها ثمر و عنقها نهر يجري به الحليب و الخضر.
٥- المرأة قنديل من ماس ذات جسم قهوائي .
٦- لم تصبغ اظافرها بعد و ما زال الحليب يفوح من ثغرها .
٧- المرأة لم يلمس ثغرها الانيق غير كلمة الحرية .
٨- المرأة التي اذا نظرت نظرة واحدة تقتل الف شيطان في قلبه
٩- المرأة التي خصلة شعرها الذي يعبده لو لامست فمه لحولت الفرات الى اغنية تحمل كل طفولة العالم .
١٠- امرأة نهلستية الشفتين تذر النار دين على الجرح .

٢- طبيعة المرأة النفسية :

لقد عاش المرأة بكل حالاتها النفسية و قد عرف هويتها بما يلي :

١- المرأة لا تحب الا الرجل المرأة .
٢- المرأة تطلق رصاصتها الاولى دائما نحو كبرياء الرجل .
٣- المرأة اللعوب التي تبحث عن البديل لتعويض الفراغ.
٤- المرأة البغي تستطيع ان تنجيه مما يعانيه و لكنها تقوده الى شاطيء عفن يتمرد منه .

٥- نساؤه و عاهراته فقيرات يغرقن في بؤس عهرهن و يتسترن وراء الطلاء الرخيص مثل بقية الناس قوله :

سموك عاهرة و لو عقلوا لما نادوك الا بالملاك المجهد

٣- الصورة العامة للمرأة :

لقد يصعب و يصعب و يصعب ان تحدد صورة عامة للمرأة عند حسين مردان فهو في السطر الواحد تجده ضياعا كاملا و متاهة لا منفذ لها ، و لكن استطيع ان احدد بمقدار فهمي السريع المرأة التي يريدها (امرأة جميلة ، طيبة القلب ، لم يلمس ثغرها الانيق غير كلمة الحرية ، تقاسمه التعب و تفهمه و يفهمها ، صاحبة الحضن الدافي و الجسد الثائر)

٤- اكتشاف اسم واحدة من حبيباته :

لا اظن بان احدا يستطيع اكتشاف اسما واحدا من اسماء حبيباته فهو الذي اعترف بذلك :

(انا الوك اسمك الجميل

اداعبه .. اعضه ثم اعود

فافرز حروفه و اضعها فوق لساني

فجأة ازدرده و اتغذى به لكي ارجعه بعد ذلك

الى شفتي قطعة لبان لا تجف ، بل ان اسمك يا سيدتي هو حياتي ..

اني اخطه على الورق و انثره على المائدة و ارشه فوق وجوه كل الناس)

لقد تغنى و خاطب و كنى و لكنه لم يعرض اسما واحدا من اسماء حبيباته بل بقيت اسماؤها مجهولة و لذلك سمى ديوانه .. عزيزتي فلانه .. و قد تكرر عنده هذا المجهول الرمز الذي لم يبح به دائما حتى موته .

٥- طبيعته النفسية :

لا استطيع ان احدد لدرجة الكمال طبيعة هذا الشاعر النفسية لانه شاعر تائه عاش الضياع و عاش الضياع فيه فهو تناقض في يومه بل ساعته و لحظته و الملل غذاؤه الدائم .

١- ان يعد الحب نوعا من الضعف (لا اريد ان اكون ضعيفا في الوقت الذي اريد ان اصبح الها) .

٢- الاعتراف و التناقض : (في اليوم الذي سأخضع فيه للحب سأبصق على عظمتي) و التي يحبها اختطفها و هي تهبط من سيارة تكسي .

٣- يفخر بعبقريته و قوة اكتشافه .

٤- الحب لا يدوم في قلبه شهر كما يقول و يعترف (انا لا اخاف من السماء و لست اؤمن بالقدر مهما عشقت فلا يدوم العشق في قلبي شهر)

٥- التناقض بالاعتراف و الاستسلام (لا استطيع ان انسى الموت الا بين احضان امرأة جميلة) ثم الايمان بالحب و ان الحب مصدر عذابه .

٦- العظمة عنده اعلى اشكال القتال على كل الجبهات و في مختلف الميادين .

٧- الحب الذي يريد ان يكون كما هو في الطبيعة و ليس كما يبدو من خلال التقاليد و المثل الاجتماعية .

٨- انه شاعر جنسي يشق الاعماق و يصور الانفعالات و الخلجات و المشاعر الدقيقة .

٩- يحتاج الى امرأة طيبة القلب لا تتركه وحيدا في القفار و انها لم تكن هكذا بل دفعت به الى المسلخ .

٦- حبيبات حسين مردان :

١- الحبيبة البغدادية (يا لعينيها التي تلمع في قرارة الكأس ، صديقتي البغدادية)
٢- (كريستال بائعة التذاكر ، ص٩٨ ، الازهار) .
٣- القطة النمساوية بائعة التذاكر ، فهي حبيبة السفر التي راها مع بعض الشبان (اهيف املس الخدين) ترقص مع بعض الشبان .
٤- الحبيبة التي سماها الجنية اللعوب و السلحفاة الفضية و اللبوة المفترسة .
٥- التي احبها و اختطفها الموت و هي تهبط من سيارة تكسي .
٦- المرأة البغي .
٧- المرأة الحبيبة التي تغنى بها اكثر من عشرين عاما .
٨- العاهرات الفقيرات
٩- امرأة صغيرة استقرت في احشائه كالنملة و لم تصبغ اظافرها .
١٠- المرأة المائة فقد احب اكثر من مائة امرأة (الازهار ، ص٥٦) .

الخاتمة :

هي نبضات انتهت و اصبحت خيط دخان يحترق امام الناظرين ثانية فما عساي ان اقول و قد عشت متاهة مردان ، فخير الكلام ما لا يقال .